المحاضرة الأولى: الأدب الشعبي المصطلح والمفهوم 1

- **تمهيد:**

ربما كان لتأثير الغرب أثره في كثير من مناحي الحياة الثقافية، والثقافة العربية. فبدأت ملامح التقليد ظاهرة العيان في البدايات الاولى للتأثير, ثم تحول هذا التأثير الى موضوع قائم بذاته و ظهر أعلام لهم مكانتهم في هذا المجال.

والمقصود هنا هي الدراسات الشعبية، مواضيعها و مجالاتها ، فنرى كل واحد يعرف لنا مكونات هذا الذي استطاع ان يجد له مكانا بين بقية العلوم ألا وهو الأدب الشعبي . لقد دأب أغلب دارسي الأدب الشعبي على أن يقدموه لنا في صورة غير واضحة وغير دقيقة، وحتى في صورة أقل ما يقال عنها إنها لا تمت بصلة إلى ثقافة المجتمع، صوره تآكلت جوانبها وامحت معالمها ،و يمكن أن تقدم لهم الأعذار في وقت تجاوزه الزمن الآن.

غير أن تلك الصورة ما زالت سارية المفعول إلى الآن ، إلاّ القليل منهم ممن تجرأ و خرج على بعضهم ليس تمردا و انما هو فهم جديد لمصطلح الادب الشعبي . غير أن هؤلاء لم يصلوا بهذا ا لمفهوم الجديد الخروج بالادب من وضعه الراهن إلى أفق جديد يسير جنبا الى جنب مع الادب الرسمي . و أبقوا عليه في قوالب جامدة تقدم هكذا كمسلمات و هنا يمكن استعراض بعضها .

و لنعد إلى التعريف الجامع الشامل للأدب الشعبي في نظر الكثير من الدارسين السابقين و بعض اللاحقين ؛ فهو أدب مجهول المؤلف ينتقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية ، و الملاحظ أن هذا المفهوم هو الموجود في كل المراجع القديمة و حتى بعض الحديثة منها. و اصحاب هذه المراجع ، لم يألوا

جهدا في النظر إلي هذا التعريف و مكوناته ، المهم لديهم أنه يؤدي غرضه و لم يحتج عليه أحد. و سيبقى هذا سائر المفعول ، ما لم يعد النظر فيه و في قضاياه حسب مقتضيات و متطلبات الوقت .

وسنقدم هنا رؤية نقدية نخالها جديدة أو نشارك فيها بعض المنورين الذين تفطنوا لوضع الدراسات الشعبية السابقة. وذلك عن طريقة تفكيك جمل التعريفات التي انبنى عليها مفهوم الأدب الشعبي وهي "مجهولية المؤلف" . نحن نعرف أن الأدب الشعبي يتكون من شقين اثنين ؛ الشق الأول هو الشعر , و الشق الثاني هو النثر بمكوناته المختلفة و المتنوعة .

فالشعر ، كغيره من الشعر في الثقافات الأخرى هو فن و الفن إبداع والابداع موهبة قد تكون لأحد ولا تكون لغيره ولا يمكن دونها أن يكون شعراء وهذا ينطبق على كل الشعراء في أي لغة وفي أي ثقافة كانت. وهنا وجب طرح قضية المصطلح في حد ذاته، إذ تعددت المسميات لهذا الشعر ولم يتفق الدارسون على مصطلح واحد قد يطمئن له القارئ العادي و القارئ العليم ((و حسبنا ان تعريفا للشعر الشعبي لم تسع إلى تقديمه أي من الدراسات و نعلم يقينا أن التعريف لا يمكن أن يجئ إلا من خلال الاستقراء الدقيق لنصوص الأنواع وصولا إلى الخصائص النوعية المميزة و التي يمثل كل منها حدا من حدود التعريف))[1] و نرى أن التسمية تنبثق من المفهوم صحيحا كان أو خاطئا لاعتبارات معينة. فمثلا نجد الدكتور عبد الله ركيبي[2] يستعمل مصطلح الملحون لاعتبارين، كل واحد لا علاقة له بالآخر. فيرى تسميته بالملحون، أنه تخلى عن القواعد النحوية

1 –صلاح الراوي : الشعر البدوي في مصر ج1 الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة 2000- ص27

2- انظرعبد الله اركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث : ش.و.ن.ت.ط1981 ص 363

والصرفية أي فيه لحن أو خطأ لغوي، وهنا ننجر الى الحديث عن اللغة المستعملة في الادب الشعبي و هي اللغة غير الفصيحة معياريا.

و نسأل هؤلاء عن ماهية اللغة التي يجب استعمالها ، ماذا ينتظرون من راو في الأسواق أو عجوز في الأدغال أن يستعملوا لغة عنترة و زهير و الصعاليك في مخابئهم . رغم أن هؤلاء مثلهم في الجانب الثقافي و التحضر الاجتماعي ، فهم لا يعرفون الا الدارجة. أي إن لغتهم كانت هي اللغة اليومية المستخدمة اجتماعيا.

الكثير من الدارسين يتكلمون عن العربية الرسمية (الفصحى) و يتخذونها مرجعا لكل توضيح و فهم و دلالة و تعريف للغة الادب الشعبي . و هذا من أكبر الأخطاء الممارسة في موضوع هذا الأدب , فيتخذون من العربية الرسمية مرجعا معياريا للغة الأدب الشعبي، فيعيبون على الشاعر الرفع و الكسر... فهذا يدعى انها تخلت عن القواعد ، و ذاك يرى فيها أخطاء لغوية و آخر... و الحقيقة التي يجب أن نقتنع بها أن اللغة الدارجة هي لغة الشعب هي لغة الاستعمال اليومي . وهذه اللغة قائمة بنفسها و لا يمكن أن نقول إنها خاطئة أو فيها أخطاء و لا نربطها بلغة أخرى ، و يمكن أن نقول إنها قريبة من لغة أخرى أو ما شابه ذلك هي لغة لها قواعدها النحوية و الصرفية و لها بلاغتها و فصاحتها و لا نشترط أن تكون مثل العربية الرسمية و هذا لا يمكن لأي كان أن ينكر ذلك.

ثم الاعتبار الثاني لعبد الله أركيبي لاستعماله صفة الملحون هو أن الشعر موجه للتلحين والغناء ومن ثم يصبح اللحن أو الملحون (الغناء) هو أقرب لتسمية الشعر. وتناسي الدكتور أن الكثير من القصائد العربية القديمة و الحديثة لحنوها وغنوها مطربون و لم يطلق عليها تسمية الملحون ، كذلك نجد محمد المرزوقي

قد استعمل الملحون اذ يقول : ((اما الشعر الملحون الذي نريد ان نتحدث عنه اليوم فهو أعم من الشعر الشعبي))[3]

كما نجد محمود ذهني[4] يتكلم عن لغة الأدب الشعبي، ويرى أن لغته تضم الفصحى والعامية ...ولا أدري كيف تكون هذه اللغة الممزوجة.

ونحن نعرف ان اللغة العربية الفصحى محدودة الاستعمال وهذا أمر لا جدال فيه، حتى في مدارسنا وفي جامعاتنا. الدارجة هي أ كثر استعمالا من الفصحى وهذا في ميدان العلوم الانسانية. أما الجوانب المعرفية الاخرى فلا مجال لها فيها.

غير أن أغلب الباحثين العرب يستعملون مصطلح الشعر الشعبي منهم : نبيلة ابراهيم ،عبد الحميد يونس ، عبد الحكيم شوقي ، علي بولنوار...إذ لا يمكن أن يسمى هذا النوع من المعرفة الانسانية (الأدب الشعبي) و نأتي الى جزء منه و نخرجه من هذه التسمية . و المعروف عن الشعر الشعبي ان أغلبه معروف القائل إذ نعرف جميع الشعراء إلا ما ندر منهم.

فالشاعر عندما ينتهي من القصيدة و في آخرها يذكر اسمه و اسم قبيلته, المكان الذي عاش فيه، و التي قال فيها هذه القصيدة. و بالتالي مجهولية المؤلف لا تصح منطقيا كشرط في التعريف .

ثم إن أغلب الاشعار مدونة في دواوين مخطوطة أو مطبوعة و في الوقت الحاضر جل الشعراء يطبعون أشعارهم و يوزعونها ورقيا أو إلكترونيا بأصواتهم.

---

[3] – محمد المرزوقي : الاب الشعبي ، الدار التونسية للنشر، ط 1 .1967 ص5

[4]- انظر محمود ذهنى : الادب الشعبي العربي مفهومه ومضمونه . مكتبة الأنجو المصرية ص 15